

اللغة العربية

الصف التاسع

قَنَّاصٌ يَخْطِفُ بَصْرَهُ



بَيْنَ يَدَيِ النَّصِّ:

زكي العيلة أحد أبرز كتّاب القصة القصيرة في فلسطين، وُلد في مُحَيِّم (جباليا) بِقِطَاعِ غَزَّةِ عام ١٩٥٠ م، لأسرة هُجرت من (بئنا) عام 1948 م. حَصَلَ على دَرَجَةِ الدِّكْتوراه في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَأَدابِها، عَمِلَ مُدْرِساً في مَدارسٍ وكالَةَ العُوْثِ. مِنْ مَجْموعاتِهِ القِصَصِيَّةِ: العَطَشُ، وَالجَبَلُ لا يَأْتِي، وَحِيطانٌ مِنْ دَمٍ، وَزَمَنُ الغِياِبِ. وَقَدَ وافَتْهُ المَنِيَّةُ إِثْرَ مَرَضٍ عُضالٍ عام 2008.

يُحاوِلُ الكاتِبُ في هذِهِ القِصَّةِ أَنْ يُبَرِّرَ ما تَعَرَّضَ لَهُ أَطْفالُ فِلَسْطِينِ مِنْ جِرائِمٍ وَحَشِيَّةٍ على أَيدي جُنودِ الاِحْتِلالِ في الانْتِفاضةِ الأولى، إِذْ واجَهَ الأَطْفالُ بأَحلامِهِم الصَّغِيرَةَ الجُنودَ المَدَجَّجِينَ بالأسلِحَةِ الثَّقِيلَةِ؛ ما أَدَّى إلى اسْتِشْهادِ بَعْضِهِم، وإِصابةِ بَعْضِهِمُ الأَخْرَ بِإِعاقاتٍ، كما حَدَّثَ مَعَ يوسُفَ الَّذي فَقَدَ عَيْنَهُ اليُسْرَى جِراءَ شَطِيطَةٍ حَطَفَتْ نورَها، وَأَضَعَفَتْ نورَ العَيْنِ الأُخْرَى؛ فَتَحَوَّلَتْ أَحلامُهُ إلى كِوابيسَ تُجَسِّدُها العَيْنُ الرُّجائِيَّةُ المَزروعةُ مَكَانَ العَيْنِ المَفقودَةِ.

قَنَّاصٌ يَخْطِفُ بَصْرَهُ

زكي العيلة/ فلسطين

سَبَّكِيهَا: اختِلافِهَا وَتَأْلِيفِهَا.

الْخَلْدُ: الْعَقْلُ.

دَهَمَ: هَجَمَ.

كَانَ يَوْسُفُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى بَيْتِهِ الْكَائِنِ فِي طَرْفِ مُخَيِّمِ جَبَالِيَا، حَدِيثُهُ مَعَ رَفِيقِهِ مُحَمَّدٍ فِي الصَّفِّ التَّاسِعِ مُخْتَلِفٌ هَذِهِ الْمَرَّةَ، كَلِمَاتُهُ تَخَطَّتِ الْمَقَالِبَ الَّتِي كَانَ يَتَفَنُّ فِي سَبَّكِيهَا، وَكُرَّةَ الْقَدَمِ الَّتِي تَمَكَّنَ آخِرًا مِنْ شِرَائِهَا مِنْ أَحَدِ بَاعَةِ الْبِضَاعَةِ الْقَدِيمَةِ فِي الْمُخَيِّمِ، وَمَحَلَّ الْأَلْعَابِ الَّذِي يَلُودُ بِهِ مُتَتَبِعًا نِزَالَ اللَّاعِبِينَ الصَّاحِبِ حَامِلًا يُغَادِرُ الْمَدْرَسَةَ، لِيَنْصَبَ حَوْلَ مَوْضُوعَاتٍ جَدِيدَةٍ اخْتَلَّتِ الْوُجُدَانُ فِي الْأَسَابِيعِ الثَّلَاثَةِ الْآخِرَةِ: طَائِرَةُ الْأَبَاتِشِيِّ، إِم ١٦، الْقَنَّاصِ، رِصَاصِ ثَقِيلِ، الْمِقْلَاعِ، الْحَجَرِ، الشُّهْدَاءِ، الْجَرْحَى، سَيَّارَاتِ الْإِسْعَافِ...، هَلْ كَانَ يَدُورُ بِخَلْدِهِمَا أَنْ أَمْرًا صَاعِقًا سَيُبَدِّلُ حَيَاتَهُمَا بَعْدَ دَقَائِقٍ؟ هَلْ كَانَا يَظُنَّانِ فِي لَحْظَةٍ أَنْ شَيْئًا مَا سَيَدْهَمُهُمَا، وَيُدْمِرُ إِلَى الْأَبَدِ أَخْلَامَهُمَا الصَّغِيرَةَ؟

طَرْفُ الْمُخَيِّمِ مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ، إِطَارَاتٌ مُشْتَعَلَةٌ، هُتَافَاتٌ، عَرَبَةٌ مَقْلُوبَةٌ، بَرَامِيلُ فَارِغَةٌ، ثَمَّةٌ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الصَّبِيَّةِ يَحْمِلُونَ حِجَارَةً وَحَصَى فِي أَكْفِهِمُ الطَّرِيَّةِ، نِدَاءَاتٌ، أَبْوَاقُ سَيَّارَاتِ إِسْعَافٍ، رِصَاصٌ يَتَنَازَرُ حَوْلَ الْفِتْيَةِ، الْجُنُودُ يَتَمَتَّرِسُونَ خَلْفَ حَوَاجِزِ إِسْمَنْتِيَّةٍ بَعِيدَةٍ، مَسَافَةٌ لَا تَصِلُهَا حِجَارَةُ الصَّبِيَّةِ، هَدِيرُ طَائِرَةٍ، رَشَقَاتُ رَشَاشِي، قَنَّاصٌ يَحْتَمِي بِسَاتِرِ بَاطُونِ، يُوزَعُ رِصَاصَاتِهِ، وَيَنْزُرُهَا نَاحِيَةَ الْفِتْيَةِ.

الْمَكَانُ مَكْشُوفٌ، يَنْبَطِحُ الْفِتْيَةُ عَلَى الْإِسْفَلْتِ، يَحْتَمُونَ بِحِجَارَةِ الرِّصِيفِ، يُقْتَشُونَ عَنْ ظِلِّ وَغِطَاءٍ، رِصَاصُ الْقَنْصِ يَمْرُقُ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمْ، يُحَاوِلُونَ الْاِحْتِمَاءَ بِأَيِّ شَيْءٍ، يَتَشَبِّثُونَ بِصَفْحَةِ الشَّارِعِ، يَتَوَقَّفُ الرِّصَاصُ ثَوَانِي، يَرْفَعُ يَوْسُفُ رَأْسَهُ، يَتَشَمَّمُ خَبْرًا، رِصَاصَةٌ تَسْتَقِرُّ فِي رَقَبَتِهِ، شَظِيَّةٌ تَقْتُلِعُ عَيْنَهُ، صُرَاخٌ، أَصَابِعُهُ تَدْتَشَبِّثُ بِالْهَوَاءِ، حَشْرَجَةٌ، يَنْقَلِبُ عَلَى جَنْبِهِ، يَتَرَاخَى، تُغَادِرُهُ الْمَرْتِيَّاتُ.

يَتَشَبَّبُ: يَتَعَلَّقُ وَيَتَمَسَّكُ.

حَشْرَجَةٌ: تَرْدُدُ النَّفْسِ فِي

الْحَنْجَرَةِ.

مُسْتَشْفَى الشِّفَاءِ بَعْرَةَ يَعُجُ بِالنَّاسِ، أَبْوَاقُ سَيَّارَاتِ الإِسْعَافِ لَا تَتَوَقَّفُ مُعْلِنَةً فِي كُلِّ لَحْظَةٍ عَنِ شَهِيدٍ أَوْ جَرِيحٍ، ضِمَادَاتٌ، أَنَابِيبٌ رَفِيعَةٌ تَنْتَشِرُ عِزْرَ الْجَسَدِ الصَّغِيرِ، تَمْتَدُّ صَوْبَ أَجْهَزَةٍ مُتَعَدِّدَةِ الأشْكَالِ، غُرْفَةٌ العِنَايَةِ المُكْتَفَةِ، لَمْ يَعُدْ لِأُسْرَةِ يوسُفَ مَكَانٌ غَيْرُ مَمَرَاتِ المُسْتَشْفَى، أَضْحَتِ الهُمُومُ جُزْءاً مِنْ حَيَاةِ أَفْرَادِ الأُسْرَةِ، وَكَيْفَ تَأْتِي رَاحَةَ البَالِ وَهُمْ يَرُونَ يوسُفَ وَهُوَ يَتَحَوَّلُ إِلَى جُثَّةٍ أَمَامَهُمْ؟!

أَغْلَقَ الأبُ دُكَّانَهُ الصَّغِيرَ الكَائِنَ فِي سَوَاقِ المُخَيِّمِ، يَتَنَقَّلُ مِنْ طَبِيبٍ إِلَى آخَرَ، عَيْنَاهُ غَابَةٌ مِنَ التَّوَسُّلِ وَالرَّجَاءِ، يَبْحَثُ عَنِ إِجَابَةٍ تُعِيدُ لِلنَّفْسِ بَعْضَ هُدُوءِهَا.

إِمْكَانِيَّاتُنَا مَحْدُودَةٌ فِي مُسْتَشْفَى الشِّفَاءِ، حَالَةُ يوسُفَ حَرَجَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى عَمَلِيَّاتٍ جِرَاحِيَّةٍ دَقِيقَةٍ، سَنَعْمَلُ عَلَى تَسْفِيرِهِ ضِمْنَ قَافِلَةِ الجَرْحَى الَّتِي سَتَتَوَجَّهُ لِلْعِلَاجِ بَعْدَ أَيَّامٍ خَارِجِ الوَطَنِ . أَوْرَاقٌ، أَخْتَامٌ، قَلَقٌ يَنْتَهِي فِي انْتِظَارِ التَّحْوِيلَةِ.

أَزْبَعُهُ أَشْهُرٌ كَامِلَةٌ أَمْضَاهَا يوسُفُ فِي مُسْتَشْفَى الرِّيَاضِ، اثْنَتَا عَشْرَةَ عَمَلِيَّةً جِرَاحِيَّةً أُجْرِيَتْ فِي رَقَبَتِهِ وَعَيْنِهِ، عِنْدَمَا بَدَأَ يَسْتَعِيدُ وَعَيْهُ، سَمِعَ الطَّبِيبَ وَهُوَ يُبْلَغُ وَالِدَهُ بِأَنَّهُمْ سَيَقُومُونَ آخِرًا بِتَرْكِيبِ عَيْنِ زُجَاجِيَّةٍ عَوْضاً عَنِ العَيْنِ المَفْقُودَةِ، اعْتَقَدَ يوسُفُ لِفَتْرَةٍ أَنْ العَيْنَ المَوْعُودَةَ لَنْ تَخْتَلِفَ عَنِ تِلْكَ الَّتِي مَرَقَهَا رِصَاصُ القَنَاصِ الإِسْرَائِيلِيِّ، وَأَنَّ التَّوَرَّعَ عَائِدٌ ثَانِيَةً إِلَى عَيْنِهِ، وَسَيَرَى النَّاسَ مَرَّةً أُخْرَى، وَسَيَرْجِعُ لِهُتَافَاتِهِ وَهُوَ يَتَّبَعُ نِزَالَ اللَّاعِبِينَ فِي مَحَلِّ الأَلْعَابِ، سَيَفْزُرُ ثَانِيَةً فَوْقَ سَوَارِعِ المُخَيِّمِ، وَهُوَ يُطَارِدُ كُرَّتَهُ العَتِيقَةَ المَحْبُوبَةَ، وَلَنْ يُعِيقَهُ شَيْءٌ بَعْدَ اليَوْمِ.

عِنْدَمَا أزالوا الأُزْبَطَةَ عَنِ عَيْنِهِ، فُوجِيَ بِأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُبْصِرُ الأَشْيَاءَ إِلَّا بِبَقِيَّةِ نُورٍ فِي عَيْنِهِ اليُمْنَى، أَصْبَحَ حَبِيسَ أَكْوَامٍ مِنَ العَتَمَةِ، كَمَّ كَرِهَ تِلْكَ العَيْنَ الرُّجَاجِيَّةَ الَّتِي احْتَلَّتْ جَفْنَيْهِ، يُحْسُ بِعَذَابٍ لَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ قَبْلُ، حِينَمَا يَقُومُ بِلِبْسِهَا أَوْ خَلْعِهَا. أَكَّدَ الطَّبِيبُ لِأَبِيهِ أَنَّ تِلْكَ العَيْنَ بِحَاجَةٍ إِلَى تَغْيِيرٍ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ حَتَّى تَنَاسَبَ مَعَ وَجْهِهِ.

عِنْدَمَا عَادَ إِلَى المَدْرَسَةِ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ عِلِمَ أَنَّ صَدِيقَهُ مُحَمَّدًا لَنْ يَعُودَ لِلْمَدْرَسَةِ، فَرِصَاصَهُ القَنَاصِ الَّتِي اسْتَقَرَّتْ فِي رَأْسِهِ أَفْقَدْتُهُ جُزْءاً كَبِيراً مِنْ تَرْكيزِهِ وَذَاكِرَتِهِ، وَأَبْقَتْهُ أُسِيرَ سَلَلٍ شَبِهُ كَامِلٍ.

لَمْ يَعُدْ يوسُفُ ذَلِكَ الطِّفْلَ الَّذِي كَانَ يَكْفِيهِ الإِنْبَاهُ إِلَى شَرْحِ المُعَلِّمِ، كَيْ يَخْجِرَ مَرْتَبَةً مُتَقَدِّمَةً بَيْنَ أَوَائِلِ الصَّفِّ، تَرَاجَعَ تَرْتِيبُهُ، لَمْ تَعُدْ كُرَّةُ القَدَمِ الَّتِي كَانَتْ تَرْقُدُ إِلَى جَانِبِ وَسَادَتِهِ تُرَاوِدُ خَيَالَهُ، ابْتَعَدَتْ عَنِ عَيْنِهِ أَلْعَابُ (الْأَتَارِي)، أَصْبَحَ كُلُّ هَمِّهِ الآنَ ابْتِعَادَ عَنِ بَاقِي أَقْرَانِهِ، تَحَوَّلَتِ الصُّورَةُ أَمَامَهُ إِلَى خَيَالَاتٍ، كُلُّ أَحْلَامِهِ الآنَ مَحْصُورَةٌ فِي تَغْيِيرِ تِلْكَ العَيْنِ الرُّجَاجِيَّةِ الَّتِي زَادَ عُمْرُهَا عَلَى العَامَيْنِ، حَتَّى الدَّوَاءُ الَّذِي حَمَلَهُ أَبُوهُ مِنْ مُسْتَشْفَى الرِّيَاضِ الخَاصِ بِتَنْطِيفِ بَاطِنِ العَيْنِ نَفِدَ، وَلَمْ تُجِدِ مُحَاوَلِ الأَبِ نَفْعاً فِي سَبِيلِ إِيجَادِهِ تَوْفِيرِهِ.

فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَحْوَرَ عَلَى عَيْنِ زُجَاجِيَّةٍ أُخْرَى تَتَنَاسَقُ مَعَ هَيْئَةِ عَيْنِهِ الْبَاقِيَةِ الَّتِي بَدَأَ الضَّوُّ يُنْحَسِرُ
عَنْهَا شَيْئاً فَشَيْئاً؟
مَنْ يُعِيدُ إِلَيْهِ الْأَجْنَحَةَ الَّتِي فَارَقَتْهُ، وَالشَّوَارِعَ الَّتِي غَادَرَتْهُ؟
مَنْ يُعِيدُ النُّورَ إِلَى عَيْنَيْنِ اغْتَالَهُمَا قَنَاصٌ يَحْتَمِي بِالطَّائِرَةِ وَالرَّشَاشَاتِ وَسَوَاتِرِ الْبَاطُونِ؟!

الْمُنَاقَشَةُ وَالتَّحْلِيلُ:

1. اخْتَمَى الْجُنُودُ مِنَ الْجِجَارَةِ بِالْمِتَارِسِ الْإِسْمَنْتِيَّةِ، وَاخْتَمَى الشُّبَّانُ مِنَ الرِّصَاصِ بِرِصِيفِ الشَّرَاعِ،
نَصِفْ مَشَاعِرَ كُلِّ مِنْهُمَا لِحُظَّةِ الْمُوَاجَهَةِ.
2. أَثَرَتِ الْإِصَابَةُ عَلَى حَيَاةِ يَوْسُفَ النَّفْسِيَّةِ وَالْأَسْرِيَّةِ، نُوضِّحْ ذَلِكَ.
3. كَانَ لِيَوْسُفَ أَحْلَامُهُ الطُّفُولِيَّةُ قَبْلَ الْإِصَابَةِ كَبَقِيَّةِ أَطْفَالِ الْعَالَمِ، لَكِنْ فَقَدَ عَيْنِهِ جَعَلَهُ يَحْلُمُ
بِأَشْيَاءٍ أُخْرَى، نُوضِّحْ تِلْكَ الْأَحْلَامَ.
4. تَعَرَّضَ كَثِيرٌ مِنَ أَطْفَالِ فِلَسْطِينَ لِلْإِعَاقَةِ نَتِيجَةً لِإِصَابَتِهِمْ بِرِصَاصِ جُنُودِ الْإِحْتِلَالِ، مَا وَاجِبُنَا
نَحْوَهُمْ؟
5. انْطَلَقَتْ شَرَارَةُ الْإِنْتِفَاضَةِ الْأُولَى مِنْ مُخِيمِ جَبَالِيَا فِي قِطَاعِ غَزَّةَ، نَبْحَثُ فِي أَسْبَابِ ذَلِكَ.
6. نُوضِّحُ الصُّورَةَ الْفَنِيَّةَ فِي كُلِّ مِنَ الْعِبَارَاتِ الْآتِيَةِ:
 - عَيْنَاهُ غَابَةٌ مِنَ التَّوَسُّلِ وَالرَّجَاءِ.
 - أَصْبَحَ حَبِيسَ أَكْوَامٍ مِنَ الْعَتَمَةِ.
 - يَرْفَعُ يَوْسُفُ رَأْسَهُ، يَتَشَمَّمُ خَبْرًا.